إبراهيم بك المويلحى

١٨٤٤ – ١٩٠٦

بقلم حفيده ابراهيم المويلحى

السـيد إبراهيم المويلحى بن السيد عبد الخالق بن السيد إبراهيم بن السيد أحمد ابن السيد الشريف مصطفى وكيل المويلح. ينتهى نسبه إلى الحسين من جهة أبيه ، وإلى الحسن من جهة أمه

فأسرة المويلحى يمتد نسبها إذن إلى الصادق « محمـد صلى الله عليه وسلم » وإلى الصديق « أبي بكر » . وهذا النسب ثابت ثبوتاً قضائياً يرجع إلى أحكام شرعية مصرية ، لا إلى مجرد « الثبوت الإداري » المعروف فى مصر

والمويلحى نسبة إلى المويلح « بلدة فى جزيرة العرب على شاطىء البحر الأحمر كانت تابعة لمصر فى عهد «على بك الـكبير» حتى سنة ١٨٩٢ ميلادية ، ثم ضمت إلى ولاية الحجاز

وقد انقسمت هذه الأسرة قسمين أحدهما فى مصر والآخر فى المويلح

وأول من وفد إلى مصر من المويلحيين السيد أحمد المويلحى بعد خدمة أداها لمحمد على باشا الـكبير فى تـكين فتنة الوهابيين ثم أقام بها ، وأسس بيتاً تجارياً بجهة التربيعة بالقاهرة

ورزق السـيد أحمد المويلحى بالسيد إبراهيم المويلحى جد صاحب هذه الترجمة ، فشب على حب الأدب وأولع به . وكان لا يخلو مجلسه من الأدباء والشعراء يطارحهم ويذاكرهم ، فكانت ألسنة الوجهاء تلهج بذكر أدبه وشعره ، حتى بلغ أمره « حبيب أفندى » كيا المغفور له « محمد على باشا » فجعله كاتبه

ولقد أدى إبراهيم خدمة جليلة لوالى مصر « محمد على » فحفظها له البيت الخديوى ، فانتفع بها المترجم له فى حالة عسره كما سيتبين لك فيما بعد

ورزق السيد إبراهيم بالسيد عبد الخالق الذي انتحى ناحية الاشتغال بالتجارة فشب على حبها وأفرغ همه فيها ، فذاعت شهرته بصناعة نسج الحرير التى كانت رائجة بمصر فى ذاك الوقت فجمع ثروة طائلة

ثم أنجب ولدين هما « إبراهيم » صاحب هـذه الترجمة ، و « عبد السـلام » واستقر رأيه على أن يجعل من إبراهيم رجلاً تجارياً . فبعد تعليمه العلوم الابتدائية فى البيت ، أخذ يوجهه نحو الاشتغال بالتجارة ، وأبقاه فى محله التجارى وأرسل أخاه « عبد السلام » إلى الأزهر ليكون عالماً . ولـكن شاءت إرادة الله أن يكون إبراهيم هو العالم والأديب ، وأن يتفرغ عبد السلام فيما بعد للتجارة ومزاولتها ، فنهض فيها نهضة إبراهيم فى العلم والأدب

فـكان إبراهيم مولعاً بالأدب والشعر منذ حداثة سنه ، وقد ورث ذلك عن جده ابراهيم ، ومن حسن حظه أن كان بجوار محله التجارى عطار لم يحضرنى اسمه كان من العلماء الأعلام الذين لم تتغلب عليهم التجارة فتنسيهم العلم ، فتتلمذ عليه إبراهيم بغير علم من والده ، فدرس عليه علوم الأدب والبلاغة والنحو والعروض حتى نبغ فيها

ومن نوادر ماروى عن رغبته فى العلم والتحايل على الحصول عليه أنه كان معه بواب للمحل يدعى « على الأشمونى » فـكان يتفق معه على أن يقف على ناصية الطريق حتى إذا ما رأى والده السيد عبد الخالق مقبلا نحو متجره راكباً مطيته يهرع إلى السيد إبراهيم المنشغل بدرسه ليقطع عليه لذة الدرس وينبهه إلى حضور والده السيد عبد الخالق ، فيذهب إلى المتجر متظاهراً بمداومة العمل

وما كان يخطر له ولا لوالده أنه سيجعل الأدب مهنته ، وهى

يومئذ مهنة الفقراء ، ولـكن الأقدار ساقته إلى الاشتغال بها . فـكان من أعظم نوابغها

وظل إبراهيم فى حجر والده آمناً سعيداً حتى توفى الوالد سنة ١٢٨٢ هجرية (١٨٦٥ ميلادية) فتولى هو تجارة أبيه وقبض على ثروته التى تبلغ ثمانين ألفاً من الجنيهات ، وجرى على خطته فى العمل حيناً فازداد تقدماً وصار عضواً فى مجلس التجار وعضواً فى مجلس مصر الابتدائى

ولا يفوت القارىء أن كل هذه المشاغل لم تحل دون ميله للأدب والشعر إذ كانت هذه الملـكة تنمو فيه شيئاً فشيئاً بين مشاغل السياسة والادارة والتجارة ، فاتفق مع المرحوم « عارف باشا » أحد أعضاء مجلس الأحكام وصاحب المآثر الـكبرى فى نشر الـكتب على تأسيس « جمعيـة المعارف » وكان جل همها نشر الـكتب النافعة وتسهيل اقتنائها ، ثم أنشأ « إبراهيم بك » مطبعة باسمه سنة ١٢٨٥ هجرية (١٨٦٨ ميلادية) لتطبع تلك الـكتب ، وتعد من أقدم المطابع المصرية ، وكانت كثرة العمل فيها تدفع الجمعية إلى طبع جزء من كتبها فى بعض الأحيان بمطابع أخرى ولا سيما « المطبعة الوهبية »

ولا شك فى أن هذه الجمعية كانت صاحبة اليد الطولى فى نشر كثير من الـكتب القيمة ككتاب « تاج العروس » و « أسد الغابة » و « رسائل بديع الزمان » و « سلوك المالك » و « ألف با » و « محاورات الأدباء والشعراء والبلغاء » وغيرها مما جعل لهـذه الجمعية شأناً كبيراً فى تاريخ النهضة الأدبية الحديثة

أما صاحب الترجمة ففى السنة الثانية من إنشاء مطبعته اتحد مع « محمد عثمان جلال بك » لإصدار جريدة عربية سماها « نزهة الأفكار » ولم يكن من الصحف العربية يومئذ بمصر إلا « جريدة وادى النيل » و « الجريدة الرسمية »

ولسوء الحظ لم يصدر منها إلا عددان ، ثم أظهر المرحوم « شاهين باشا » للخديو إسماعيل تخوفه مما سوف تثيره مقالاتها من الأفكار وتولده من الفتن ، فأصدر الخديو أمراً بالغائها . وظلت المطبعة على ما هى عليه من طبع الـكتب الأدبية والتاريخية والفقهية لجمعية المعارف ، كما كان يطبع المترجم كتباً على نفقته الخاصة

وكانت مضاربات البورصة حديثة العهد بمصر ، وقد تشدق الناس بمعجزاتها فى سرعة الإثراء . ولما كان إبراهيم طلاباً للعلا لم يكتف بما عنده من الرزق الواسع وحدثته نفسه بطلب المزيد ، فاندمج فى صف المضاربين ، يربح تارة فيطمع فى المزيد ، ويخسر أخرى فيطلب التعويض . وما هلت سنة ١٢٨٩ هجرية (١٨٧٢ ميلادية) حتى استنزف ثروته ، وأثقل بالديون وكاد البيت يتزعزع ، فرأى الخديو إسماعيل من اللازم أن يقيم أود ذلك البيت المشهور بعزه وجاهه فقال لشريف باشا وثابت باشا : « إن ما سأصنعه لهـذا البيت واجب على ذمتنا ، فإن جدهم خدم جدى خدمات جليلة »

ثم طلب اسـتدعاء إبراهيم وعبد السلام ، فلما مثلا بين يديه قال : من منـكما الأكبر ؟ فقـال إبراهيم : عبـدكم يا مولاى . فسأله : كيف تسير أعمالـكما التجارية بعد موت أبيكما ؟ فقال إبراهيم : إن علمها عنـد عبد السلام (وقد ذكرنا من قبـل أنه هو الذى مارس التجارة وأدارها) لأنى انقطعت للعلم والأدب . فالتفت الخديو إلى عبد السلام ، فتقدم وبسط الحالة التجارية والمالية . وهنا تناول الخديو ورقة وخط فيها بيـده الـكريمة سطرين وناولها إبراهيم ليسلمها لرئيس الديوان

وبعد أن قام الأخوان بواجب الشكر ذهبا توًّا إلى حيث أمرا وهما لا يعلمان ما خبأته لهما الأقدار !

وكم كانت دهشتهما عنـد ما علما أن بالورقة أمراً كريماً بتعيين إبراهيم عضواً فى مجلس الاستئناف براتب شهري قدره أربعون جنيهاً ، وبصرف أربعة آلاف جنيـه لعبد السلام ليسدد ما عليهما من ديون ، وليتمكن من إقامة ما اعوج من شـئون التجارة ، وبالإنعام على كل منهما برتبـة بك من الدرجة الثانية

ولم يكتف إسماعيل باشا بكل هذا ، بل أبى عليه كرمه إلا أن يصدر أوامره إلى جميع من فى قصوره من النساء بأن يعدلن

عن لبس الأنسجة الأوربية إلى الأنسجة المصرية من صنع المويلحي ، وألا يدخل تشريفات السيدات سيدة مرتدية غير هذه المنسوجات ، كما أمر بصنع كمية كبيرة منها لإرسالها إلى معرض فينا في تلك الأيام

وما زال المترجم له في وظيفته بمجلس الاستئناف حتى آلت رياسته إلى المرحوم « حيـدر باشا يكن » فوقع بينهما شقاق انتهى باستقالة « إبراهيم بك »

ولـكن عناية الخديو إسماعيل ما زالت ترعاه ؛ فأمر باعطائه مصلحة تمغة « المشغولات والمنسوجات » على سبيل الالتزام (الاحتكار) على أن يؤدي للحكومة جُعلا

ولما سقطت وزارة « نوبار باشا » سنة ١٢٩٦هـ سنة ١٨٧٩م التي كان فيها عضوان أجنبيان ، وخلفتها وزارة « شريف باشا » المعروفة باسم الوزارة الوطنية ، وهمت بإنشاء اللائحة الوطنية لتأسيس مبادئ الحكومة الدستورية — وقع الاختيار على المترجم له لوضع هذه اللائحة

ولما أن استقرت الوزارة الجديدة طلب المرحوم « راغب باشا » ناظر المالية وقتئذ من الخديو إسماعيل أن يكون إبراهيم بك معه في المالية لما يتوسمه فيه من النجابة والنباهة وعلو الهمة وسداد الرأي ، فلم يمانع الخديو وسر بهذا الاختيار ، وأصدر الأمر بتعيينه ناظراً للقلم العربي بها . وهنا تجلى نبوغه وظهرت جدارته فأحيلت إليه نظارة قلم « العرضحالات » مع ملاحظة (قلم تركي المالية) وعين عضواً في مجلس تسديد الديون السائرة

ولما تنازل الخديو عن العرش سنة ١٨٧٩م كما هو معروف ، وصدرت أوامر السلطان بنفيه ، طلب الإذن من السلطان بالاقامة في استانبول أو أزمير ، فلم يصادف هذا الطلب قبولاً . فلما علم الملك « أومبرتو Umberto » ملك إيطاليا بهذا الرفض ، طيب خاطر صديق والده ، ووضع تحت تصرفه سراي « الفافوريتا La Favorita » بضواحي نابولي

على أن هذا النفي لم ينسه ذكر إبراهيم فبعث يستقدمه إليه . فلبى إبراهيم الأمر ، واستعفى من مناصبه وظل في معية إسماعيل بضع سنوات كان يقوم في أثنائها بوظيفة كاتب يده « سكرتيره العربي » يكتب عنه الرسائل إلى الملوك والأمراء ، كما كان يقوم بالتدريس لنجله سمو البرنس أحمد فؤاد « المغفور له صاحب الجلالة فؤاد الأول » وقد أرسل ابراهيم بك كتاباً إلى ابنه المرحوم السيد محمد بك المويلحي بتاريخ ١٥ مارس سنة ١٨٨٠ يطلب منه الاسراع بارسال بعض كتب النحو الصغيرة لهذا الغرض

وفي نفس هـذه السنة أي سـنة ١٨٨٠ م أنشأ جريدة « الاتحاد » بإيطاليا ، وأصدر منها ثلاثة أعداد كانت مقالاتها شديدة اللهجة على سياسة الدولة العلية مما جعل السلطان عبد الحميد يطلب من سفارته بإيطاليا إبعاد مندوب من قبلها لدى الخديو إسماعيل ليرجوه أن يأمر « سكرتيره » بالكف عن نشر تلك الجريدة .

وفي أثنـاء إقامة الأسرة الخديوية بإيطاليا مرضت إحدى الأميرات من زوجات سمو الخديو إسماعيل « بالروماتزم » ، ووصف لها الأطباء بلدة « بورسة » لخشية عليها من المكث في الجو الذي هي فيـه . فأشكل الأمر على الخديو ، وبث همه إلى « سكرتيره » وطلب منه أن يكتب لجلالة السلطان عبد الحميد رسالة يشرح له فيها حالة المريضة بذلك الأسلوب المتين الساحر

فـكتب إبراهيم بك رسالته المشهورة عن لسـان الخديو إسماعيل التماساً لدخول حرمه الآستانة وأفرغ فيها كل ما أوتي من بيان

ولما ترجمت وعرضت على السلطان عبد الحميد تأثر بها وأرسل برقيـة إلى سفيره في إيطاليا يدعوه حرم الخديو إسماعيل إلى الآستانة للاستشفاء بمياه « بورسة » المعدنية

وقد يلذ القارئ أن يطلع على هذه الرسالة وهي رسالة طويلة نقتطف منها ما يأتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، وخليفة رسول رب العالمين ، أطال الله بقاءه ، وجعلني من كل مكروه فداءه . من عبد اكتنفه حرمان الرضا من ولي نعمته ، ومالك ناصيته ، فساعته شهر ، وليلته دهر ، وعبرته نهر ، وكذلك جواب دعائه جاراً مما يقاسي من غضب أمير المؤمنين وقد قال الله تعالى حاثاً على العفو : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس .. » وأمير المؤمنين أولى العالمين في الاقتداء بآي الكتاب العزيز . وإني أتضرع إلى

مقام خلافتكم العظمى ، وسلطنتكم الكبرى متوسلا بجناب صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أن يلحظ ما أعرضه لدى سدتكم الملوكية بعين الرضا ، ولو أن العذر إقرار بالذنب لملأت الصحائف أعذاراً ، ولعرضت التوبة ليلا ونهاراً

وهبني يا أمير المؤمنين جئت بكل ذنب . أليس في سعة عفوكم وساحة إحسانكم ما تغفر به الذنوب ؛ وأمير المؤمنين أعلى نظراً أن يؤاخذ بقول وهو إفك الوشاة ، أو يعاقب بكلام وهو بهتان السعاة ، من الذين اتخذوا حرفتهم أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، بعد أن أفنيت حياتي لهذا البيت المعمور في خدم قدمتها ، وأوامر أطعتها ، ونواهي امتثلتها ، موالاة جعلتها شرطاً سادساً لديني ومعتقدي ، وإتباعاً لقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » ... إلى أن قال في آخرها :

« ... وإني أذكر أمير المؤمنين — فان الذكرى تنفع المؤمنين بقوله تعالى : « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » وإن بين جلالتكم وبين رعيتكم ، وهذه الريضة فرد من أفرادهم — الرحم الديني — الذي هو أولى بوجوب الصلة من رحم النسب ، قال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » أي واتقوا في أخوتكم في الدين برعاية عهودكم وحفظ حقوقكم ، فعلمنا أن الأخوة الدينية تقتضي مزيد الشفقة والرحمة ، ولا معنى للرحمة والشفقة إلا أن تنقذ المؤمن من المهالك ، وتؤمنه من المخاوف ، وتخلصه من الآفات ، وأن توصل إليه المبرات ما استطعت ؛ ولا يكمل عبد من الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وإني أتوسل إلى الله أن يلحق أمير المؤمنين بنزاهته وشفقته ورحمته وعدله وإيمانه ورعايته ، ما في يديه من ودائع الله التي هي أرواح المسلمين وأعراضهم . وصمته : الاستمرار على حرمان هذه الريضة من علاجها الممكن ، فإنها إنما تدخل تحت سطوة السلطنة العظمى وقوة الخلافة الكبرى ، في بلدة صغيرة من ممالك الدولة العثمانية

«ولو شاهد أمير المؤمنين هذه المريضة المسكينة وهي سائلتي : بماذا أجاب الخليفة ؟ أيرضى أمير المؤمنين أن أقول لها : قد أغضى عن الإجابة !؟ وهو تصريح بهتك الحجاب أو الموت — كبرت كلمة تخرج من الأفواه ! — فإذا قالت : فأين الدين والايمان والحديث والقرآن والعدل والإحسان ؟ فلا مساغ يا أمير المؤمنين للجواب !

« يا خليفة رسول الله : هذه فرد من أفراد رعيتكم ، وقال صلى الله عليه وسلم : « وكل راع مسؤول عن رعيته » فالتمس من أعتاب مولانا المعظم أن يصدر أمره العالي بما يوافق شفقته وإرادته وأن يصفح عن عبده . وإني لممتثل لجميع أوامر مولانا أمير المؤمنين ، أعدها فرضاً واجباً ، فإن الحياة والله لا تصفو لعبد سدتكم وفي التصور أن ولي نعمته مغض عنه

«وأنا واقف على البعد أتلقى أوامركم بفريضة الامتثال ، وإن لم يصادف تضرعي ودعائي قبولاً فإني أخشى أن هذه المريضة وهي في الاحتضار ، تمد يدها بكتاب الله قائلة : بيني وبين أمير المؤمنين هذا الكتاب العزيز في الدنيا والآخرة . والأمر لله من قبل ومن بعد ... ! »

« البقية في العدد القادم » ابراهيم الموبلحي

النمـــوذج

كتاب الأدباء الناشئين

تأليف

محمد جلال

رئيس قلم الترجمة بوزارة الزراعة بالقاهرة

خريج مدرسة المعلمين العليا ومدرسة الحقوق الملكية

تجد فيه المواقف المسرحية والمخلوقات التي تصلح

للقصص والروايات

كما تجد فيه الانفعالات النفسية وفلسفة الضحك ومثيرات

الضحك لمن يريد أن يكون كاتباً فكاهياً

الثمن خمسة وعشرون قرشاً

يطلب من المؤلف بشارع الأخشيد رقم ٤ بالروضة

أو من أي مكتبة شهيرة

إذا شئت أن تكتب بقلمك فاقرأ النموذج